أزمة الأنثروبولوجيا في فهم الإنسان المعاصر

أحمد واعظي *

هـذا المقـال هـو دراسـةٌ موجـزةٌ لمجموعـةِ الأنشـطةِ والبُحـوث الَّتِـي تمّـت حـول الإنسـان، ومعرفـة أبعـاده الوجوديَّـة فـي مختلـفِ فـروع المعرفـة، والهـدف منهـا هـو العثـور علـى إجابـةٍ لسُـؤالَين:

الأوَّل: هل الأنثروبولوجيا المعاصِرة في أزمة؟

الآخر: وفي حال وجود أزمة، هل هناك من حلٍّ عمليٍّ للخروج من الأزمة؟

وقبل الدُّخُول إلى البحث من الضَّروريّ أن نُوضّح مرادنا من عبارتي: «الأنثروبولوجيا»، و«الأزمة».

المقصود من الأنثروبولوجيا

بعكـس الفيزيـاء، والكيميـاء، وعلـم الأحيـاء، وأمثالهـا ـ والَّتِـي هـي علـمٌ واحـدٌ مُحـدّد بموضـوع ومنهـج مُعيّـن ـ فإنّـه لا يمكـن الأخـذ فـي الحِسْـبان الأنثروبولوجيـا بوصفـه علمًـا واحـدًا؛ إذ إنّ اتِّسـاع الأبعـاد الوجوديَّـة للإنسـان وإمكانيَّـة دراسـته هـو وآثـاره الوجوديَّـة مـن زوايـا مختلفـة، يُوفّـر عمليًّـا السِّـياق لانخـراط فُـروعٍ واسـعةٍ مـن

* اسـتاذ الفلسـفة المعاصـرة وعضـو الهيئـة العلميّـة فـي جامعـة باقـر العلـوم فـي قـم / إيـران. النـص تعريـب د. محمـد ترمـس.

العلـوم والمعـارف، فـي دراسـة الإنسـان.

إنّ مـا يُسـمى اليـوم بـ «الأنثروبولوجيـا»[1]، لا يمكـن عَـدّه مُمثّـلًا عـن عمـوم الجُهُـود المُمْكنـة والحاليَّـة حـول معرفـة الإنسـان. فالأنثروبولوجيـا علـمٌ قـد تأسّـس حديثًـا، ولاقى رواجًـا في القرنيـن الأخيريـن، وفي الواقـع هـو دراسـة التاريـخ الطَّبيعيّ للإنسـان، ويتألَّـف مـن أربعـة فـروع أساسيَّة، هـي: «الأنثروبولوجيـا الفيزيائيَّـة»، و«علـم الآثـار»، و«الأنثروبولوجيـا الثَّقافيَّـة»، و «اللُّغويّـات أو الألسـنيَّة». ولـكلٍّ مـن تلك الفـروع الأربعة فروعًـا فرعيَّـة أخـرى؛ على سـبيل المثـال، للأنثروبولوجيـا الفيزيائيَّـة خمسـة فـروع، هـي: «علـم الإنسـان القديـم أو علـم الأحافيـر البشـريَّة»[2]، و«علـم الحيوانـات الأوَّليَّـة»[3]، و«علـم التشـريح»[4]، و«النُّمـوّ والتنميـة»[5] و«الأنثروبولوجيـا الجينيَّـة أو الوراثيَّـة»[6].

إذا مـا اختصرنـا الأبعـاد الوجوديَّـة للإنسـان في ثلاثـة أبعـادٍ أساسيَّة، هـي: الجسـديَّة، والنَّفسِـيَّة، والاجتماعيَّـة؛ فـإنّ المُـراد مـن الأنثروبولوجيـا فـي هـذا المقـال، لا يهـدف التطـرُّق إلـى الجهـود العلميَّـة الَّتِـي تمّـت فـي سـياق معرفـة البُعْـد الجسـمانيّ/المادّيّ للإنسـان؛ وعلى هـذا الأسـاس، هنـاك قسـمٌ واسـعٌ مـن موضوعـات الأنثروبولوجيـا خارج مجـال بحثنـا ونطاقـه.

يمكـن إيجـاز مجمـوع الدِّراسـات والبحـوث حـول البُعديـن: النّفسـيّ والاجتماعـيّ للإنسـان في ثلاثة فـروع أساسـيَّة: الأنثروبولوجيا «العلميَّـة»، و«الفلسـفيَّة»، و«الدينيَّة».

ليـس المُـرادُ مـن الأَنثروبولوجيـا العلميَّـة فقـط تلـك القضايـا الخاصَّـة النَّاشـئة مـن الاسـتقراء التّجريبـيّ؛ بـل يشـمل أيضًـا العلـوم الَّتِـي تتمثّـلُ طريقتهـا فـي تقديـم قضايـا ونظريَّـات قابلـة للاختبـار حـول الإنسـان. وبنـاءً عليـه، يمكـن أن تنـدرج تمـام العلـوم الإنسـانيَّة والاجتماعيَّـة ضمـن هـذا الفـرع[7].

1- Anthropology.

2- Paleoanthropology.

3- Primatology.

4- Anatomy.

5- Bioarchaeology.

6- Genetic anthropology.

7- بالطبـع، هنـاك رؤى ووجهـات نظـر فـي فلسـفة العلـوم الاجتماعيَّـة والإنسـانيَّة، تفيـد بأنّـه ليس مـن شـأن عالِـم تلـك العلـوم وعملـه تقديـم نظريّـات قابلـة للاختبـار والشـرح العلّـي ←

الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، هي بصدد تقديم معارف حول الإنسان من خلال التأمُّل والشهود العقلانيّ. ومن إنجازات هذا النوع من الأنثروبولوجيا تقديم قضايا غير تجريبيَّة، وغير قابلة للاختبار.

أمّا الأنثروبولوجيا الدينيَّة، فتستند إلى المصادر والنُّصُوص الدينيَّة، وفي الواقع هي صدًى وانعكاس لمحتوى النُّصوص الدينيَّة حول الإنسان.

المقصود من «الأزمة»

إنّ كلمة «أزمة» هي من تلك الكلمات الشّائع استعمالها، وبالحدّ الأدنى يمكن الإشارة إلى ثلاث استخدامات أساسيَّة لها:

1. ظهور المُعْضلات والمُشْكلات الخارجيَّة، الَّتِي تكون في بعض الأحيان من النَّوع الَّذي يخلق أزمةً لفرعٍ من العلم المُنْخرط في العمل على حلّ تلك المشكلات. على سبيل المثال، رُكود السُّوق، أو التَّضخُّم والبطالة، إذا تجاوزت الحدّ المُتَعَارف فسوف تخلق أزمةً لاقتصادِ بلدٍ ما. وتُعدُّ الأزمات السِّياسيَّة والاجتماعيَّة أيضًا من هذا النَّوع.

في حال كان نطاق المُشْكِلات الخارجيَّة بنحوٍ يجعلُ النَّظريّات المقبولة والسّائدة في ذلك العلم عاجزة عن تفسير تلك المشكلات وتقديم حلٍّ للقضاء عليها، فسوف تتوجّهُ سهام الأزمة نحو ذلك العلم. في تلك الحالة، يتمُّ طرح عباراتٍ من قبيل: «أزمة علم الاقتصاد»، «أزمة علم الاجتماع»، و... ويمكن الإشارة إلى كتاب «أزمة علم اجتماع الغربي» لـ ألفين غولدنر بوصفه أنموذجًا لاستخدام كلمة الأزمة بهذا المعنى الأوّل لها؛ إذ يقول غولدنر:

«تطوي نظريَّة الوظيفيَّة، وعلم الاجتماع الأكاديميّ، بشكلٍ عامٍّ، حاليًّا المراحل الأولى من أزمةٍ طويلة. وما سوف يُطرح في هذا الكتاب من الآن فصاعدًا هو محاولةٌ في سبيلِ تحديد مصادر تلك الأزمة وآثارها، وتوضيح النتائج الحاصلة عن ذلك... إنّ وجود الأزمة، يعني تلك التغييرات التلقائيَّة والسَّريعة الَّتِي تحوي التناقضات الشَّديدة والتوتّرات المُهمَّة، والَّتِي تُلزِم النّظام على دفع تكاليف باهظة أمامها»[1].

2. تقديم مساراتٍ ونظريّاتٍ جديدة ـ والَّتِي عادةً ما تتمتّع بالشّواهد الصَّادقة

← للعلاقات. وسوف يأتي توضيح مضمون تلك الرُّؤى في المطالب اللّاحقة.

1- غولدنر، آلفين؛ بحران جامعه شناسي غرب، ص 377 و 378.

والموثوقة أيضًا ـ والَّتي تهزّ من كيان النَّظريَّات المقبولة سابقًا وتتحدّاها، فتُخلق أزمة لذلك العلم. ولا يعني هذا الكلام أنّ كل نظريَّة جديدة سوف تُبطل النَّظريَّة القديمة، وستخلق للعلم أزمة؛ بل المقصود أنّ تلك النَّظريّات الَّتي يُنظر إليها على أنّها ثورةٌ في العلم، وتوجِد نزاعًا واسعًا في عُرْف علماء أيّ علم؛ على سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى فيزياء أينشتاين في مقابل فيزياء نيوتن، ومِيكانيكا الكمّ في مقابل الميكانيكا الكلاسيكيَّة. إنّ ما ورد في مقالة «الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة» في الموسوعة الفلسفيَّة من تحرير بول ادواردز حول أول ظهورٍ لأزمة العلم، لهو مثالٌ على استخدام كلمة أزمة بالمعنى الثاني لها. يقول كاتب المقالة: «الأنثروبولوجيون الفلسفيّون، يشاهدون أزمةً في العلم؛ أزمة برزت للمرّة الأولى في إطار ثلاث إهاناتٍ للإنسان: الإهانة الأولى على يد علم الفلك الكوبرنيكي والَّذي سحب مسكن الإنسان؛ أي الأرض من عرش مركزيَّة العالم إلى أسفل؛ الإهانة الثانية، التطوُّريَّة البيولوجيَّة الدّاروينيَّة الَّتي جعلت الإنسان خجلًا ومهانًا، والإهانة الثالثة كانت بوساطة المدارس التاريخيَّة الَّتي عرضت نسبيَّة القيم الدِّينيَّة والثَّقافيَّة للإنسان»[1].

3. فقدان اتِّجاهٍ واحدٍ مشترك في فرع من المعرفة ووجود نوع من الفوضى المنهجيَّة (الميتدولوجيَّة)، وانعدام وجود مركزيَّة مُوجِّهة للدِّراسات ومُنسِّقة وجامعة للمعطيات المختلفة؛ ما يؤدّي لاتّصاف ذلك العلم بالعلم المُتأزّم. وما يورده ماكس شلر[2] وزملاؤه حول وجود أزمةٍ في الأنثروبولوجيا المعاصرة ينطبق على القسم الثالث لمعنى الأزمة، ولا ينطبق على الحالتين: الأولى، والثانية.

«ماكس شلر» وأزمة الأنثروبولوجيا المعاصرة

من بين المُفكِّرين الغربيِّين، يُعدُّ ماكس شلر من أوائل الَّذين حذّروا من وجود أزمةٍ في الأنثروبولوجيا المعاصرة. ويقول في هذا الصَّدد: «لم يكن طوال التاريخ أبدًا ـ وفق ما نعلم ـ يُشكّل الإنسانُ إشكاليَّة لذاته كما هو اليوم. في هذا العصر، أصبحت الأنثروبولوجيا العلميَّة، والأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، والأنثروبولوجيا المستندة إلى الإلهيّات، غير مكترثة لبعضها بعضًا تمامًا. ومع ذلك، لا يوجد تصوُّرٌ وفهمٌ واحد حول الإنسان. فضلًا عن ذلك، إنّ العلوم التّخصُّصيَّة ـ الَّتي يتصاعد عددها

1- Paul Edwards, Encyclopedia of Philosophy - vol. 6. P 160.

2- Max Scheler.

باستمرار وتتعامل مع قضايا الإنسان ـ مخفية لذات الإنسان في كواليس الحجاب بدلًا من توضيحها».

في معرض توضيحه لمقصود ماكس شلر حول الأنثروبولوجيا المعاصرة، يؤكّد ارنست كاسيرر أنّ مجرّد وجود اختلافٍ في الآراء والنَّظريّات لا يوجب الأزمة؛ لأنّه دائمًا ما شهدنا، وما زلنا نشهد وجود اختلافاتٍ في مختلف فروع العلوم. إنّ ما يؤدّي إلى حصول أزمة في الأنثروبولوجيا هو وجود تخبُّطٍ وفوضى كاملة للفكر. في معرفة الإنسان، لا يوجد جهةٌ عامَّة ومرجعيَّة مُحدّدة لتوجيه الأفكار حتى يكون بالإمكان تحديد اتّجاه البحث وطريقته حول الإنسان. فنحن نواجه مناهج واتِّجاهاتٍ مُتباينة تمامًا، وغريبة عن بعضها بعضًا، ولا تلحظ بعضها بعضًا. ويقول في هذا الصَّدد:

«بالنِّسبة إلى ما يتعلّق بمصادر معرفة طبيعة الإنسان، لا يوجد عصر كان الوضع مساعدًا أكثر من عصرنا. علم النفس، والأتنوغرافيا، والأنثروبولوجيا، والتاريخ كلّ ذلك خصبٌ بشكلٍ مُدهش بالمعلومات والمُعْطيات المُتعلّقة بالإنسان والمتزايدة بلا انقطاع... ومع ذلك، حسبما يبدو أنّه لم يتمّ الحصول بعد على منهجٍ يمكن من خلاله تنظيم كلّ تلك الموارد والعناصر والسَّيطرة الموضوعيَّة عليها جميعًا ... إنّ غنى المعلومات والمُعْطيات لا يساوي بالضَّرورة غنًى فكريًّا. ولأجل الخروج من ذلك الدهليز المظلم، إذا لم نستطع العثور على صراطٍ مُستقيم، فلن يكون وجود علم واقعيٍّ بالمميزات الكلّيَّة للثّقافة الإنسانيَّة أمرًا مُمكنًا، وسوف نستمرّ في الغرق في كمِّيَّة من المعلومات المُجزّأة والمُتناثرة ـ الفاقدة في الظَّاهر لأيّ نوعٍ من الانْسجام الدَّاخليّ ـ »[1].

إنّ الأزمة الَّتي يشكو منها ماكس شلر وأنصاره، يمكن البحث عنها في سياقين أساسيّين، هما كالآتي:

1. عدم اكتراث فروع الأنثروبولوجيا المختلفة لبعضها بعضًا.
2. وجود اختلافاتٍ ميتدولوجيَّة عميقة في كلٍّ من فروع علم الإنسان الثلاثة: (العلميَّة، والفلسفيَّة، والدِّينيَّة).

ينصبُّ جهدنا في هذا المقال على دراسة حقيقة تلك الأزمة في هذين السِّياقين، وإظهار جذورهما. ولأجل ذلك، سوف ننخرط بداية في دراسة جذور الأزمة في

1- كاسيرر، ارنست؛ رساله ای در باب انسان، ترجمة بزرگ نادر زاده، ص 46 و47.

كلّ فرعٍ من فروع الأنثروبولوجيا (السِّياق ب)، ومن ثمَّ؛ نحكم على سبب عدم اكتراثٍ كلّ فرعٍ بسائر الفروع (السِّياق الف). ويكمن سرّ ذلك التَّقدُّم والتَّأخُّر في أنّ الكشف عمّا يحصل في تلك الفروع الثلاثة من المعرفة حول الإنسان، وبيان جذور الأزمة في كلّ واحدٍ منها، سوف يكشف تلقائيًّا وإلى حدٍّ كبيرٍ سرّ عدم اكتراث كلّ فرعٍ بالفروع الأخرى. وسيساعدنا في مواجهة هذا السُّؤال المُهمّ، وهو: هل تُعدُّ الدَّعوة إلى أنْ يهتمّ كلّ فرعٍ من فروع الأنثروبولوجيا بغيره أمرًا معقولًا في ظلّ وجود أزمةٍ في كلّ واحدٍ من تلك الفروع، ومن دون حلّ تلك الاختلافات العميقة، أم لا؟ وهل سيساعدنا في تقديم العون لكلّ فرعٍ من تلك الفروع الثلاثة، والأهمّ من كل ذلك هل يمكن وفق كلّ أساسٍ ميتدولوجي، ترغيب الأنثروبولوجيا العلميَّة وتشجيعها في التفكير في إنجازات الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، أو الدينيَّة؛ أم أنّ بعض الأُسُس الميتدولوجيَّة لا تتحمّل مثل ذلك التفكر والاهتمام؟

أزمة الأنثروبولوجيا العلميَّة

في النَّظرة الأولى إلى الأنثروبولوجيا العلميَّة (العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة)، نواجه تَشَتُّتًا واختلاف نظرٍ مثير للدَّهشة، والَّتي لا نرى مثلها أبدًا في العلوم الطَّبيعيَّة. في مواردٍ من قبيل: شيوع اختلافٍ شديدٍ بين علماء الأنثروبولوجيا العلميَّة، حول ما هي الأمور الَّتي يجب أن تبحث عنها، ومن خلال أيّ منهجٍ تصل إلى الهدف. ويصل نطاق تلك الاختلافات إلى درجةٍ واسعةٍ؛ بحيث يمكن الادّعاء أنّنا نواجه ثقافاتٍ بحثيَّة مختلفة بخصائص متعارضة تمامًا، ويبدو أنّه لا يوجد أيّ أملٍ للتَّصالح والائتلاف فيما بينها.

خلافًا للأنثروبولوجيا العلميَّة، فإنّنا لا نُواجه أبدًا مثل تلك الخصاص المُتَعارضة في المعرفة العلميَّة للطَّبيعة؛ بل تحكم علماء العلوم الطبيعيَّة ثقافة البحث الواحد ولديهم توافق نظرٍ في اتّخاذ منهج واحد (المبادئ). والخصيصة المحوريَّة لذلك هي، قبول معيار قابليَّة اختبار النَّظريّات، والتسليم للعمليَّات النَّقديَّة والتَّقويميَّة الجماعيَّة والشّاملة.

في ذلك القسم، هناك اختلافاتٌ في الخصائص الجانبيَّة والمحيطة؛ يعني الاختلافات حول أمورٍ من قبيل الاستفادة من النّماذج والمناهج الكمِّيَّة، ومستوى

الالتـزام بالمعتقـدات الميتافيزيقيَّـة الأساسـيَّة وكيفيّتهـا، وأمثـال ذلـك[1].

لا تعـود النِّزاعـات الموجـودة في العلـوم الطَّبيعيَّـة، إلى منهجيَّـة المعرفـة وموضوعها؛ بـل بشـكلٍ أسـاس مُتّصلـة بفلسـفة العلـم، والتقويـم الفلسـفيّ للإنجـازات العلميَّـة، وهـدف العلـم، وبحـوثٌ ونقاشـاتٌ مـن قبيـل؛ هـل النَّظريّـات العلميَّـة كاشـفةٌ للواقـع أم لا؟ هـل هـي قابلـة للإثبـات أم للدَّحـض؟ وهـذا لا يـؤدّي إلـى أيّ خلـلٍ فـي الإجمـاع العـام الحاصـل فـي منهـج البحـث العلميّ، وقبـول النَّظريّـات ورفضهـا[2].

يمكـن البحـث عـن جـذور الأزمـة فـي الأنثروبولوجيـا العلميَّـة فـي ثـلاث نزاعـاتٍ رئيسـة، وهـي:

- النّزاع في كفاية المنهج التّجريبيّ (النّزعة الطبيعيَّة) لمعرفة الإنسان.
- النّزاع في منهج فهم حياة البشر الداخليَّة (الباطنيَّة) وسُلوكيّاتهم ذات المعنى.
- النّزاع في كيفيَّة تقويم النّظريّات وقياسها.

1. نزاع النّزعة الطّبيعيَّة:

يعتقـد أنصـار المنهـج التجريبـيّ المحـض (الوضعيـون الَّذيـن لا يعتقـدون بوجـود فـرقٍ بيـن الأنثروبولوجيـا، وعلـم الطَّبيعـة)، أنّ نقطـة عـزم عالـم الأنثروبولوجيـا الحصول علـى المعـارف المُقنّنـة حـول الإنسـان. وتفتـرض تلـك النَّظـرة أنّ هنـاك نَظمًـا مُقنّنًـا حاكمًـا علـى الإنسـان، وعلـى الظواهـر الإنسـانيَّة (كمـا أنّـه حاكـمٌ علـى الطبيعـة) وأنّ فردانيَّـة كلّ فـردٍ واختيـاره وحرّيّتـه ليسـت ناقضـة لتلـك النّظـم والتقنينـات. إنّ الحصـول علـى معرفـةٍ موضوعيَّـة (objective) عـن الإنسـان والظواهـر الإنسـانيَّة والاجتماعيَّـة، لهـو أمـرٌ مقـدورٌ عليـه ومُمكـن تمامًـا؛ فقـط بشـرط أن يحـذف العالِـم مـن أنشـطته العلميَّة عناصـره الشـخصيَّة والذهنيَّـة، ويكـون ناظـرًا إلـى تلـك التقنينـات بصفتـه مُلاحِظًـا بحتًـا.

لأنّ تلـك النَّظـرة تسـعى إلـى التفسـير العلّـي (التعليـل) للحـوادث الإنسـانيَّة، والتنبُّـؤ بهـا، والتصـرُّف فيهـا، لـذا؛ فهـي تكتفـي بالظاهـر، وتغـضُّ النَّظَـر عـن نظرتهـا الداخليَّـة، وفهمهـا للأمـور، وتقصّيهـا للمعنـى. فمـن منظورهـم، إنّ تفسـير الحـوادث الإنسـانيَّة ليـس إلّا تفسـيرٌ لأسـباب (علـل) تلـك الحـوادث وقوانينهـا. لـذا؛ إنّ وظيفـة العالِـم

1- مـن قبيـل: هـل يمكـن تفسـير سـلوك الفـرد وتعليلـه علـى أسـاس حـبّ الإيثـار المحـض أم لا؟ ليتـل، دانيـل؛ تبييـن در علـوم اجتماعـى، ترجمـة عبـد الكريـم سـروش، ص 375 و376.

2- البتـة، لقـد حـاول «بـول فايرابنـد» فـي كتابـه المعـروف «ضـدّ المنهـج» (against method) القيـام ضـدّ فـرض منهـجٍ واحـدٍ فـي البحـث العلمـيّ والترويـج لنـوعٍ مـن الفوضـى المتدولوجيَّـة.

هي استخدام المنهجين: التجريبيّ، والإحصائيّ (النَّظرة الخارجيَّة إلى السُّلوكيّات)؛ بهدف الوصول إلى قوانين مُنظَّمة وثابتة وتنبُّؤيَّة. بناءً على ما تقدّم، إنّ سوق الجهد العِلْميّ نحو فهم العلاقات الدّاخليَّة للحوادث، ومعنى السُّلُوك الإنسانيّ، لهو انحرافٌ عن مسير الأنثروبولوجيا. بتعبيرٍ آخر، إنّ التفسير الَّذي يجب أن يكون منظورًا ومطلوبًا بالنسبة إلى العالِم، لا يحصلُ إلّا في ظلّ التفسير العلّي، وليس في ظلّ فهم المعنى.

يُشِيرُ دانييل ليتل إلى سرّ تلك النّزعة قائلًا: «قوّة عقيدة وحدة العلم، أنّها أحد الأسباب الأساسيَّة لانجذاب بعض الفلاسفة تجاه النّزعة الطَّبيعيَّة. في الواقع، إنّ جميع العلوم عبارة عن أجزاءٍ لنشاطٍ واسع وعظيم، ويسوده وحدة ميتدولوجيَّة»[1].

لقد تعرّضت النّزعة الطَّبيعيَّة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة إلى النّقد والإنكار من قِبل العديد من الباحثين في المقولات الإنسانيَّة. فقد أكّد المعارضون المُتشدّدون الاختلاف الجوهريّ بين الأنثروبولوجيا، وعلم الطبيعة ـ في الموضوع والمنهج ـ وسعى المعارضون المعتدلون إلى إيجاد مقاربة مشتركة مع النزعة التجريبيَّة من بعض الجوانب، على الرّغم من تأكيدهمٍ وجود فروقٍ جدّيَّة.

ويلهلم ديلتاي (1911م ـ 1833م) من جُملة المُفكرين الَّذين أصرّوا على وجود اختلافٍ جوهريّ. فمن وجهة نظر ديلتاي، لا تتعامل الدِّراسات الإنسانيَّة مع الوقائع والظواهر الصّامتة؛ بل هي مرتبطة بالوقائع ذات المعنى، ولا يناسب المنهج المُتداول لمعرفة الأشياء الطَّبيعيَّة في معرفة الظَّواهر الإنسانيَّة. ويصرّ ديلتاي على أنّ الكلمة المفتاحيَّة للدِّراسات الإنسانيَّة هي كلمة «الفهم»[2]، وللمنهج التجريبيّ، والعلوم الطبيعيَّة «التفسير العلّي»[3].

بيتر وينش، مُفكّرٌ آخرٌ خاض النّزاع مع النّزعة الطَّبيعيَّة في الدِّراسات الإنسانيَّة. ينتقد وينش عقيدة النّزعة الطّبيعيَّة القائلة بأنّ الفرق بين الأنثروبولوجيا، وعلم الطبيعة في الدرجة فقط، وأنّ الظّواهر الإنسانيَّة أكثر تعقيدًا من الظواهر الطبيعيَّة، ويؤكّد بأنّ اختلافهما في النّوع، وليس في الدرجة. فالطَّبيعةُ ممزوجةٌ بقوانين يجب أن يتمّ تفسيرها علّيًا، والعالم الإنسانيّ مملوءٌ بالقواعد (Rules) والمعاني الَّتي

1- ليتل، دانييل؛ تبيين در علوم اجتماعي، ص385.

2- understanding.

3- Palmers, Richard, Hermeneutics - pp. 104, 105.

يجب أن تُفهم. وبما أنّهما مختلفان ماهويًّا في الموضوع، فسنخيَّة البحث أيضًا مختلفة. في معرفة الطّبيعة، لدينا البحث التجريبيّ (Empirical)، وفي معرفة الإنسان والمجتمع لدينا بحثٌ مفاهيميّ (Conceptual)؛ على هذا الأساس، تِبعًا للاختلاف النّوعي للموضوع، سوف يختلف منهج البحث أيضًا. وفي الدِّراسات الإنسانيَّة، يجب أن نسعى خلف فهم السُّلوكيّات والظواهر بمساعدة التحليل الفلسفيّ بدلًا من استخدام البحث التجريبيّ[1].

من منظور وينش، يعود الفرق بين الأنثروبولوجيا، وعلم الطبيعة إلى فارقين أساسيّين: «الأول، للسُّلوك الإنسانيّ ظاهرٌ وباطنٌ خلاف الطبيعة. العمل الفرديّ والاجتماعيُّ للإنسان، له معنى يجب أن يؤخذ في الحِسْبان؛ إذ تجعل القواعد والاتِّجاهات الاجتماعيَّة وقصده ونيته تِبعًا لتلك القواعد. والفرق الآخر هو، أنّه يُثار لدى الإنسان ـ وبعكس الطبيعة ـ مسألة الطّاعة والتمرُّد والتصميم والإرادة. وعلى هذا الأساس، إنّ التنبُّؤ في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ضعيفٌ مقارنةً مع العلوم الطبيعيَّة»[2].

أمّا ماكس فيبر، فإنّه يُؤكّد الاختلاف النَّوعيّ بين العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الطَّبيعيَّة من خلال موقفٍ أكثر مرونة، وفي سياق الاختلاف الجوهريّ لموضوعاتهما في معنائيَّة (دلالة) الظواهر وقابليَّة تفسيرها، لا يعتقد أنّ التمسُّك بالفهم الاجتماعيّ العميق (verstehen) غير كافٍ، ويعتقد من الضَّروريّ إكمال ذلك بالقواعد الإحصائيَّة.

2. النّزاع في النّزعة التّفسيريَّة:

المفكرون والعلماء الَّذين يعتقدون أنّ السُّلوكين: الفرديّ والجماعيّ للإنسان ذو معنى، والمدركون لتعقيد حالاته الدّاخليَّة، وتمتُّعه بعنصر الإرادة، والاختيار، والنيَّة، والهدف؛ يشتركون في رفض النّزعة الطّبيعيَّة، وتطبيق منهج العلوم الطّبيعيَّة الرائج في معرفة الإنسان والظواهر الإنسانيَّة؛ ولكنّهم لا يتحرّكون على طريقٍ واحدٍ في اقتراح المنهج البديل. حتى أولئك الّذين يعدُّون منهج معرفتهم تفسيريًّا وهرمنوطيفيًّا (تأويليًّا)[3]، لا يملكون فهمًا واحدًا في طريقة العمل. وهنا من دون أن نكون في

1- Winch, peter. The Idea of a social science, pp. 71, 75.

2- سروش، عبد الكريم؛ درسهايى در فلسفه علم الاجتماع، ص 137-126.

3- Hermeneutical.

مقام الإحصاء وعدّ مختلف المناهج غير ذات النّزعة الطّبيعيَّة، سوف نكتفي فقط بذكر بعضٍ منها؛ وذلك بهدف الإشارة إلى وجود اختلافاتٍ في تلك الجهة أيضًا:

أ. التَّعاطف عن طريق النَّظرة الدّاخليَّة:

يؤمن المعتقدون بهذا المنهج، بأنّ التجربة الذِّهنيَّة للمُلاحِظ تساعده في معرفته للأفراد المستهدَفين بالدِّراسة. وتستلزم المعرفة والفهم الأصيل (verstehen) للشّخص الآخر، الخيال التعاطفيّ، أو التّعاطف (empathy). ولا يمكن التّعاطف إلّا بمساعدة النَّظرة الداخليَّة؛ أي جعل معرفة الذات أساسًا لمعرفة الآخرين. وطبقًا لتلك النَّظرة، يمكن تحليل عمل الإنسان بناءً للدَّوافع غير القابلة للملاحظة، والاتِّجاهات والقيم المُحدّدة، والَّتي لدينا علمٌ حضوريٌّ بآثارها في حياتنا. ويعتقد كالينغ وود بأنّه فقط بمساعدة «التَّماثُل الخياليّ» مع شعوب العصور الماضية يمكن للباحث أن يدرك المعاني والمقاصد الَّتي كانت حاكمة على أعمالهم[1].

ب. منهج التحليل الفلسفيّ:

يعتقد «بيتر وينش» أنّ السُّلوك الهادف ذو المعنى هو سلوكٌ يتمّ على أساس تقبُّل القواعد الاجتماعيَّة واتّجاهاتها، وعلى هذا الأساس، فإنّ وظيفة عالِم العلوم الاجتماعيَّة هي فهم تلك القواعد والاتّجاهات، والمنهج المُقترح من قِبله هو منهج التَّحليل الفلسفيّ. وفي ظلّ التَّحليل الفلسفيّ، والاطِّلاع على رؤى المجتمع ووجهات نظره، يمكن التنبُّؤ بسُلُوك أفراد المجتمع تجاه قضيَّةٍ مُحدّدة. ولا يعني دائمًا وجود خطأ في التنبُّؤ؛ أي وجود خطأ في المنهج وفي فهم المُعْطَيات، أو خطئها (بعكس التنبُّؤ في العلوم الطَّبيعيَّة)؛ بل انطلاقًا من أنّ سُلوكيَّات النّاس اختياريَّة، ومن المُمكن ألّا يتصرّفوا دائمًا طبقًا للتوقُّعات[2].

ج. منهج التفهُّم بوساطة التفسير الإحصائيّ:

هذا المنهج هو من اقتراح ماكس فيبر الَّذي كان يعتقد بالاختلاف الجوهريّ بين الأنثروبولوجيا، وعلم الطبيعة ومعنى السُّلوكين: الفرديّ والجمعيّ للنّاس وهدفهما، وحاجة العالِم إلى الفهم الاجتماعيّ العميق، وفي الوقت نفسه، كان يعتقد أنّ عمل العالِم ليس التفسير، والفهم الصَّرف؛ بل يرى أنّه لقياس مدى صحّة تلك التفسيرات، يجب اقترانها بالقوانين الإحصائيَّة النّاجمة من الملاحظة؛ بحيث

1- باربور، ايان؛ علم و دين، ترجمة بهاء الدين خرمشاهي، ص225.

2- Winch, Peter. The Idea of a social science, pp. 72, 91.

تقود صحّة تلك التنبُّؤات الإحصائيَّة إلى تأييد تلك الفرضيّات والتفسيرات. طبعًا، لم يُوضّح فيبر أبدًا الخصائص المنطقيَّة للمنهج الَّذي يؤدّي إلى الفهم والإدراك التفسيري للظّواهر، ولم يعرض تحليلًا واضحًا حول المنهج التفهّمي الَّذي يتبنّاه[1].

د. المنهج التفسيري لـ «ديلتاي»:

إنّ الفهم الإجمالي لمنهج ديلتاي المقترح لفهم الإنسان والظواهر الإنسانيَّة، منوطٌ ببيانٍ موجز لنظريّاته حول الإنسان، وكيفيَّة معرفة هذا الإنسان. من منظور ديلتاي، ليس للإنسان ذاتٌ وجوهرٌ ثابت؛ بل له وجودٌ تاريخيّ يتغيّر ويتطوّر ضمن سياق ذلك الوجود. ويعتقد ـ مثل نيتشه ـ بأنّ الإنسان حيوان لم يتشخّص ويتحدّد بعد. وما السُّلوك، والآثار، والفنّ وتمام التجلِّيات الإنسانيَّة إلّا التّحقُّق الموضوعيّ[2] لحياة البشر الداخليَّة. ولذا، يمكن معرفة الإنسان من خلال الولوج إلى الحياة الداخليَّة.

تتشكّل الحياة الداخليَّة للبشر من عناصر لا يمكن معرفتها عن طريق مقولات العقل المحض، ومفاهيمٌ يتمّ من خلالها التعرُّف إلى سائر الظّواهر الطَّبيعيَّة. كذلك لا يمكن الوصول إلى معرفة الحياة الداخليَّة للإنسان عن طريق النَّظر إلى الداخل والمعرفة المباشرة للذّات أيضًا[3]. إنّ الطريق الوحيد لمعرفة الإنسان هو التفسير الصّحيح للتجارب الموضوعيَّة (العينيَّة) للحياة الداخليَّة للبشر؛ يعني تقديم تفسيرٍ صحيح للسُّلوك وآثاره، وردود الفعل البشريَّة الَّتي هي جميعها حاصل التجارب الدّاخليَّة للبشر وظهورها وبروزها[4].

لا تعني تلك الإشارة فهم فعل التفكير الصَّرف؛ بل انتقال وإعادة تجربة عالَم كان قد واجهه أفرادٌ آخرون في إطار تجربةٍ حيويَّةٍ. وفي الواقع، يكتشف الشخص نفسه مرّةً أخرى في قالب شخصٍ آخر. وسبب وجود ذلك الإمكان هو أنّ للناس

1- Ibid, p. 112, 113.

2- Objectification.

3- Introspection.

4- كرّس ديلتاي جميع جهوده العلميَّة لوضع أساسٍ من أجل Geisteswissenschaften. ومراده من هذه الكلمة، تمام العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة وتمام الاختصاصات الَّتي تنخرط في تفسير تجلّيات الحياة الداخليَّة للبشر. وتشمل هذه الظهورات والتجلِّيات الأعمال التاريخيَّة، القوانين المُدوّنة، النصوص والآثار الفنيَّة والأدبيَّة والدينيَّة. لقد كان يجهد لأجل أن يتمكّن من الوصول إلى منهجٍ لفهم هذه الأمور والَّذي نتيجته تكون الحصول على تفسيرٍ صحيح وموثوق لتجلّيات الحياة الداخليَّة للبشر.

حالاتٍ داخليَّة مُتشابهة. لذا؛ يمكن عَدّ تلك المعارف والتَّجارب الجزئيَّة بصفتها معرفة الإنسان. ويصبح ذلك الفهم والتفسير في دائرة «الهرمنيوطيقا» واقعًا؛ أي يواجه الشخص الَّذي يسعى إلى المعرفة، في أفق فهمه الخاص، تلك التجربة الموضوعيَّة (المُتحقّقة)، ويكون الفهم حاصل ذلك التأثير المُتبادل. وانطلاقًا من أنّ المعارف السّابقة، وفهم التجارب الإنسانيَّة في حالةٍ من التغيير والتَّحوُّل (تاريخيَّة الإنسان)، فإنّ فهمنا للإنسان وتجاربه الموضوعيَّة في حالٍ من السيّاليَّة، وسيكون لدينا دائمًا تفسيرًا نسبيًّا، وفهمًا مُتغيّرًا[1].

هـ. المنهج النّقديّ:

من منظور مفكّرين، مثل: آدرنو، هربرت ماركوزه، و يورغن هابرماس الّذين هم من أبرز وجوه المدرسة النَّقديَّة[2]، لا يمكن أبدًا معرفة الظواهر الاجتماعيَّة والإنسانيَّة المفعمة بالقيم. عندما ننقد نظريَّة اجتماعيَّة، يجب أن ننقد العالم الخارجيّ أيضًا. لا يعود عدم الصّحّة دائمًا إلى النّظريّات؛ بل يمكن أن يكون العالم الخارجيّ أيضًا غير صحيح. فيدا العالِم مُقيّدتان أمام الطّبيعة، وبمقدوره أن يكون فقط ناظرًا ومُفسّرًا (مُعلّلًا)؛ أمّا في الشؤون المتّصلة بالإنسان، يجب أن يكون العالِم مُغيِّرًا. إذن، نحن نحتاج إلى منهج جديدٍ من أجل نقد النَّظريّات، ولا تُعدُّ مشاهدة الشواهد لوحدها دليلًا على صدق نظريَّة، ولا على كذبها. وهكذا، في المنهج المقترح من قِبل تلك المدرسة، يمزجون العلم والعمل معًا، فالعالِم يخرج من كونه راويًا، ويمدّ أواصر الجدليَّة بين العلم والعمل[3].

3. النّزاع في كيفيَّة قياس النَّظريّات وتقويمها:

يوجبُ الاختلافُ في موضوع أيّ علم، الاختلاف في منهج البحث لذلك العلم؛ مثلًا الّذين لا يرون وجود اختلافٍ جوهريّ بين الظواهر الإنسانيَّة والطبيعيَّة؛ سوف يوصون باستخدام المنهج التجريبيّ في الدِّراسات الإنسانيَّة، وبالعكس أولئك الّذين يعتقدون الظّواهر والسُّلوكيَّات الإنسانيَّة مختلفة تمامًا عن الظّواهر الطَّبيعيَّة، ويرون أنّها تحتوي على علاقاتٍ ذات معنى ودلالة داخليَّة (ما وراء العلاقات الظاهريَّة)، فإنّهم سيقترحون المناهج «المُتقصّية عن المعنى» والتفسيريَّة. وعلى هذا المنوال،

1- Palmer, Richard, Hermeneutics, pp. 116, 102, 104, 115, 120, 121.

2- Critical school.

3- سروش، عبد الكريم؛ درسهايى در فلسفه علم الاجتماع، ص 152 و 187 و188 و189.

يسوق الاختلاف في منهج البحث في الدِّراسات الإنسانيَّة إلى الاختلاف في وجهات النَّظر في كيفيَّة تقويم النَّظريَّات والتفسيرات في مثل ذلك النَّوع من الدِّراسات.

فالطَّبيعيُّون، أو ذوو النّزعة الطَّبيعيَّة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، يؤكدون قابليَّة الاختبار المشترك بين الذات ـ بصفته مؤشرًا لقياس النَّظريَّات واختبارها. ويصرّ ماكس فيبر على تطابق الملاحظات والمشاهدات مع التنبُّؤات والقواعد الإحصائيَّة المُصَاحِبة للنَّظريَّة، بوصفها وسيلةً لتأكيد فهم الأفعال الفرديَّة والجماعيَّة وتفسيرها.

في حين أنّ بيتر وينش لا يعتقد التّأييد الإحصائيّ كافيًا لتحديد صحّة فهم السُّلوك والظواهر الإنسانيَّة وتفسيرهما بأيّ وجهٍ من الوجوه، ويعطي هو نفسه مثالًا: من المُمكن أن تصدق جميع التنبُّؤات والقواعد الإحصائيَّة لباحث ما حول لُغَةٍ ما (مثلًا اللُّغة الصِّينيَّة)، على الرّغم من أنّه لا يفهمُ أساسًا شيئًا من اللُّغة الصينيَّة. إذن؛ الفهم الصَّحيح غير منوطٍ بِصحَّة المُعْطَيات الإحصائيَّة[1].

بناءً لبعض المناهج، تختفي الموضوعيَّة والصّدق والكذب، وتسود نسبيَّة تامّة؛ بحيث لا يمكن الحديث بعد عن تقويم النَّظريَّات وقياسها. مثلًا على أساس نظريَّة المدرسة النَّقديَّة، ونظرًا إلى إمكان تغيير الخارج، وتدخُّل القيم في النّقد، لا يبقى هناك من ضابطةٍ لقياس النَّظريَّة على أساس المُلاحظة، وغير ذلك. كذلك المنهج المُقترح من قِبل ديلتاي ـ نظرًا إلى عَدّ الإنسان تاريخيًّا ـ سوف ينتهي إلى تاريخيَّة الفهم وسيّاليته.

بناءً لما تقدّم، تتّضح بشكلٍ جلِيٍّ جذور الأزمة في الأنثروبولوجيا العلميَّة. والآن، سوف نبحث الأزمة في الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة.

أزمة الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة

قبل الانخراط في بحث جذور الأزمة، لا بُدَّ في هذا القسم الإشارة إلى تصوُّرين موجودين حول الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة: التصوُّر الأول: هو أن يكون لدينا نظرة فلسفيَّة إلى البُعْدين: النّفسيّ، والاجتماعيّ للإنسان، وبدلًا من استخدام المنهج التجريبيّ في فهم تلك الأبعاد الإنسانيَّة وتحليلها، يتمّ التمسُّك بالمنهج الفلسفيّ،

1- Winch, Peter. The Idea of a social science, p. 115.

وتحلّ العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة الفلسفيَّة محلّ التفسير العلّي والتجريبيّ لذينِك البُعْدين. وطبقًا لذلك التّصوُّر، تندرج العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ضمن مجموعة الفلسفة، وفرعًا من فروعها وليس ضمن الأنثروبولوجيا العلميَّة[1].

التصوُّر الآخر: للأنثروبولوجيا الفلسفيَّة هي أنّها شيءٌ يجعلها تمتاز عن العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ـ بجميع مناهجها ـ؛ لأنّها تعالج أمورًا من حيث المسائل والموضوعات لا تنخرط فيها العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة. ومحور النّقاشات في ذلك الفهم للأنثروبولوجيا الفلسفيَّة هو حقيقة الإنسان ومعرفة واقعه وذاته، والإجابة عن الأسئلة الكليَّة والأساسيَّة حول الإنسان. أسئلةٌ من قبيل، هل للبشر طبيعة وذات مُشْتركة؟ هل للإنسان روحٌ مُجرَّدة فضلًا عن البدن؟ هل الإنسان مختارٌ أم مجبر؟ هل لدى الإنسان أمورٌ فطريَّة، وغير اكتسابيَّة؟

بالنسبة إلى التصوُّر الأوّل، فقد تطرَّقنا إليه بنحوٍ من الأنحاء في المباحث السّابقة. لذا؛ سوف نتعرَّض في ما يلي إلى المباحث المُتَّصلة بالتصوُّر الآخر. ونتاج ذلك النّوع من الأنثروبولوجيا هو توفير القضايا والنَّظريّات الميتافيزيقيَّة وغير التجريبيَّة حول الإنسان. والنَّظريّات الميتافيزيقيَّة، أو غير العلميَّة، هي نظريّاتٌ يمكن إقامة شواهد وأدلَّة عليها في عالم الخارج والطّبيعة، ولكن لا يمكن مواجهتها مع الخارج وعَدّها باطلًا؛ وبخلاف النّظريّات العلميَّة الَّتي تنتفع من التجربة، وكذلك تتضرّر منها، فإنّها تنتفع من التجربة، ولكنّها لا تتضرَّر منها.

تحتلّ الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة أهمِّيَّةً من حيث إنّ تمام البحوث العلميَّة في مجال الأبعاد الوجوديَّة للإنسان مُستندة إلى افتراضاتٍ حول الإنسان، والَّتي هي نتاج الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة. فبحثنا حول الإنسان في علوم مثل: علم النفس، والاقتصاد، وعلم الاجتماع يعتمد تمامًا على الكيفيَّة الَّتي نرى فيها الإنسان؛ إذ إنّ تغيير فهمنا ونظرتنا إلى الإنسان سوف يُؤثّر في تغيير منهجنا العلميّ، وطبقًا لـ آلفين غولدنر: «إنّ استخدام منهجٍ مُحدّدٍ للبحث، كاشفٌ ـ في حدّ ذاته ـ عن وجودِ افتراضاتٍ سابقة خاصّة عن الإنسان والمجتمع»[2].

والأنثروبولوجيا الفلسفيَّة ليست مهنة خاصّة واختصاصٌ خاصٌ منحصرٌ بأشخاص مُعيّنين؛ بدلاً من ذلك، يُنظّر مفكرو وعلماء فروع مختلف العلوم الَّتي ترتبط

1- Richard S. Runder Philosophy of social science, p. 82.

2- غولدنر، آلوين؛ بحران جامعه شناسى غرب، ص 59.

بطريقةٍ ما بالإنسان، في قضايا تلك العلوم، ولديهم وجهات نظر فلسفيَّة خاصّة حول الإنسان.

إنّ أشخاصًا مثل: داروين، وفرويد، وماركس، على الرّغم من أنّهم كانوا مُتخصّصين في علم الأحياء، وعلم النفس، والاقتصاد السِّياسيّ، إلّا أنّ كلّ واحدٍ منهم قد أثار وجهات نظرٍ فلسفيَّة خاصّة حول الإنسان.

1. جذور الأزمة في الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة:

على الرّغم من الجهود الحثيثة الَّتي بُذِلَت من أجل الإجابة عن الأسئلة الأساسيَّة المُثارة في الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، فإنّ سبب عدم عثور تلك الأسئلة على الإجابات الشَّافية لها في عُرْفِ المجتمع العلميّ، وأنّ كلّ إجابةٍ مقبولة لدى بعضهم، ومرفوضة من بعضهم الآخر، واتّخاذ الحلول صبغة فرديَّة وغير جماعيَّة، يكمن في ثلاث نقاطٍ هي:

أ. الشَّكّ في فاعليَّة المنهج الفلسفيّ وكفاءته العقليَّة في حلّ تلك القضايا:

تعود الشُّكوك في قُدْرة العقل وقابليَّة المنهج الفلسفيّ في معرفة تلك القضايا، إلى أسبابٍ مُتعدِّدة. بعض جذور ذلك الشّكّ مُتّصلٌ ببحث قيمة المعلومات العقليَّة. بعض المفكّرين لم يعطوا إجابةً مُقْنعةً عن هذا السُّؤال المُهمّ، ما الدَّليل على عدم ارتكاب عقولنا لأخطاءٍ مُتكرِّرة؟ لذلك، تتعرَّض في تمثيل الواقع، كلّ الجهود العقليَّة وإنجازات المنهج الفلسفيّ إلى شكٍّ جدّيٍّ.

يعتقد بعض المُفكّرين بوجود مجالٍ خاصٍّ للمباحث الفلسفيَّة؛ بحيث إنّهم يعتقدون أنّ معالجة الأسئلة المطروحة في الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة وأساسًا معرفة العالم الخارجي ليس من شأن الفلسفة ووظيفتها. ويزعم هؤلاء أنّه في معرفة العالم الخارجيّ وتفسيره، يوجد الكثير من المعضلات والمشكلات النّاشئة من الغرابة والالتباسات الموجودة في اللُّغة. ولذلك؛ ينحصر شأن الفلسفة في معالجة اللُّغة والانخراط في بحثها. إنّ الكشف عن المغالطات اللُّغويَّة، وحلّ الالتباسات والمشكلات النّاشئة عن اللّغة هو العمل الوحيد الَّذي يجيده الفيلسوف، ومعرفة جوهر الإنسان وطبيعته بعيدًا من متناول الفلسفة[1].

ب. انتشار مغالطة «الكُنه والوجه»:

إنّ ارتكاب مغالطة «الكُنه والوجه»؛ بحيث يتمّ عَدّ وجهًا، أو صفةً من شيءٍ

1- Winch, peter. The Idea of a social science, p. 12.

ما كُنه ذلك الشيء وكلّيّته، لهو موضوعٌ ذو سياقٍ في العلم؛ ولكن تلك المغالطة تتجلّى بشكلٍ أبرز في المعرفة الفلسفيَّة للإنسان، وخاصَّةً عندما تكون في صدد بيان حقيقة الإنسان والعنصر الأساس المؤثّر في شخصيّته وسُلُوكه.

قد دفع الكشف عن أيّ عنصرٍ مؤثرٍ في الشّخصيَّة والحياة الإنسانيَّة، بعض المفكرين بأن يميلوا نحو تعريف طبيعة الإنسان وأصله بناءً لذلك العنصر والخصيصة وفي النتيجة، فقد طرحوا اعتقادًا ذاتيًّا اعتباطيًّا، وغير مدعوم بصفته مُعرّفًا ومُمثّلًا لحقيقة الإنسان وطبيعته دون الالتفات إلى العوامل الأخرى المُكوّنة للشَّخصيَّة، والمُمثّلة لذات الإنسان. وعلى ذلك الأساس، اعتقد نيتشه إرادة القوَّة هي القوَّة الرئيسة للإنسان، ورأى فرويد أنّ هُويَّة الإنسان مُتأثّرة بالغريزة الجنسيَّة، واعتقد ماركس أنّ الغريزة الاقتصاديَّة للبشر هي الأصل.

ج. فقدان منهج مشترك من أجل تقويم النَّظريَّات الفلسفيَّة:

في العلوم التجريبيَّة، يتمّ اختبار النّظريَّات وقياسها بنحوٍ ما؛ ما يُوفّر إمكانيَّة التحكيم الجماعيّ؛ ولكن في النَّظريّات الميتافيزيقيَّة الَّتي يتمّ تقديمها حول حقيقة الإنسان، وسائر المناقشات الأساسيَّة الأخرى ذات الصِّلة بالإنسان، لا يتوفّر سياقٍ للاختبار الجماعيّ والمشترك لما هو ذاتي نظرًا إلى طبيعته غير التجريبيَّة.

في ذلك الجزء من المعرفة العقليَّة القائمة على الاستدلال العقليّ، والَّذي يصلُ إلى النتيجة عن طريق المقدّمات اليقينيَّة، هناك إمكانيَّة للتحكيم حول النتائج والمنطق هو أداة القياس والتحكيم حول استحكام البراهين والوثوق بالنتائج؛ ولكن النَّظريّات الفلسفيَّة حول الإنسان، الَّتي يشتمل معظمها على افتراضاتٍ ومدعياتٍ ميتافيزيقيَّة من غير المُمْكن إبطالها تجريبيًّا، وهي لا تنبثق من مُقدّماتٍ عقليَّةٍ واستدلاليَّةٍ حتى يتوفّر السّياق للتّحكيم الجماعيّ؛ بل هي نتاج موقفٍ ذاتيّ حول الإنسان لا يقبل إلّا التحكيم الفرديّ، ولا يحلُّ سوى المشكلة الفرديَّة لذلك الشخص، ولا يفسح المجال من أجل مشاركة الآخرين في تقويم تلك النّظريَّات وقياسها.

أزمة الأنثروبولوجيا الدينيَّة

كما أشرنا في بداية البحث، أنَّ المُراد من الأنثروبولوجيا الدِّينيَّة هو معرفة الإنسان بمساعدة النُّصُوص الدِّينيَّة، وبما أنّ هذا الفرع من الأنثروبولوجيا في التُّراث المسيحيّ ـ اليهوديّ يُعاني أيضًا من أزمة، فإنّ ما يلي هو رسم أبعاد تلك

الأزمة وجذورها في ما يتعلّق بالنُّصوص الدّينيَّة لذلك التُّراث[1].

إنّ تنوُّع الرُّؤى ووجهات النَّظر حول مضمون النُّصوص الدينيَّة المسيحيَّة، والاختلاف العميق والجذريّ في مباني فهم تلك النُّصُوص وتفسيرها، سلب عمليًّا إمكانيَّة تقديم فهم واضح وصريح حول الإنسان من تلك النُّصُوص. والمحور الأساس للنّقاشات والنّزاعات هو، هل يُقدّم مضمون تلك النُّصوص وموضوعاتها معلوماتٍ مصونة عن الخطأ حول الحقائق الخارجيَّة (عالم الطبيعة، والكون، والإنسان،...)؟ وسبب ذلك الشَّكّ والسُّؤال هو أنّ الإنجيل قد تمّ تدوينه بيد أشخاصٍ مُميّزين يتمتّعون برؤيةٍ كونيَّةٍ، ومعلوماتٍ حول العالم خاصّة في زمانهم، وتلك المعلومات مختلفة عمّا تُفيدنا به اليوم العلوم الحديثة في معرفة العالم. بناءً عليه، سوف يكون مستوى صِدقيَّة المعارف وصحّتها الَّتي تُوفّرها تلك النُّصوص عن العالم والإنسان موضع تساؤلٍ وشكوك.

في ما يلي سيتمُّ عرض تقريرٍ مُوجزٍ عن بعض الآراء المُخْتلفة حول فهم تلك النُّصوص وتفسيرها، ومكانة الموضوعات المعرفيَّة فيها؛ لتتّضِحَ في ظلّ ذلك التقرير الإجماليّ جذور الأزمة في ذلك القسم من الأنثروبولوجيا.

1. المذهب الكاثوليكيّ:

في المذهب الكاثوليكيّ، بصرف النَّظر عن الأصوليِّين[2]، هناك إيمان عادةً بتفسير النُّصُوص وبتأويل ظاهرها. في هذا المذهب، الحقائق الوحيانيَّة غير موجودة فقط في الكتاب المُقدّس؛ بل هي موجودة في الكتاب المُقدّس وكذلك في السُّنَّة الَّتي تتجلَّى في التفسير الحي والاجتهاديّ للكنيسة. فضلًا عن ذلك، لا يغلق الاعتقاد بأنّ الكتاب المُقدَّس هو وحيٌ، أو إلهامٌ إلهيٌّ، الطريق أمام المرونة والتوسُّع والتنوُّع الضَّروريّ في تفسير الكتاب المُقدّس، وتسمح مسألة «المستويات والمجالات المختلفة للحقيقة» دائمًا تأويل الآيات والعبارات المتشابهة المُثيرة للبحث.

1- هناك اختلافٌ جوهريٌّ بين فهم المسلمين ونظرتهم إلى نصوصهم الدِّينيَّة (القرآن) وفهم المسيحيّين ونظرتهم إلى نصوص الدين المسيحيّ. فالقرآن عند المسلمين كتابٌ ألفاظه وحيانيَّة وليست بشريَّة بتاتًا، ولكن المسيحيُّون يعترفون أنّ مضمون الإنجيل مُدوّنٌ من قِبل أشخاصٍ قد كتبوا طريقة حياة المسيح ومواعظه. وهذا الاختلاف الجوهريّ يُجنّب الكثير من الخلافات والنِّزاعات الَّتي حدثت حول تفسير النُّصُوص الدينيَّة وحجِّيَّتها في عالم المسيحيَّة.

2- Foundamentalists.

لقد قيل في المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ في العام 1943م أنّ الكتاب المُقدّس يستفيد من أساليب بيان وتعابير خاصة بالشعوب القديمة، ويجب على المُفسّرين الجُدُد أن يفهموا تمامًا روحيَّة تلك العصور البعيدة المنال بمساعدة العلوم التاريخيَّة والأثريَّة والإثنولوجيَّة، وغيرها من العلوم من أجل فهم بالضبط معنى وجود التعابير الَّتِي استخدمها مُؤلِّفو كلّ من الأسفار، أو الأناجيل في كتاباتهم[1]. وفقًا لما قيل في تلك الرُّؤية، هناك مجالٌ دائمٌ للتصرُّف والتأويل، وما ينتج من ذلك التأويل فهو وحيانيّ ومُقدَّس.

2. الإلهيّات المعتدلة:

من منظور الإلهيَّات المعتدلة، أو اللِّيبراليَّة، فإنّ الله هو مُنزّل الوحي، ولكن ليس عن طريق إملاء كتاب مصونٍ من التحريف والخطأ؛ بل بوساطة حضوره في حياة المسيح، وسائر أنبياء بني إسرائيل. في تلك الحالة، إنّ الكتاب المُقدَّس ليس بالوحي المباشر؛ بل هو شهادة إنسانيَّة عن انعكاس الوحي في مرآة الظروف والتجارب البشريَّة.

في تلك النَّظرة الجديدة لتفسير النُّصُوص، لا يتمّ الاعتناء بوجهات النَّظَر، والتعلّقات الفرديَّة للمؤلّفين القدماء، والأهداف الَّتِي كانوا يتوخّونها في تأليف مثل تلك النُّصوص، ولا إلى البيئة والمُقْتضيات التَّاريخيَّة للعصر الَّذي عاشوا فيه[2]. طبقًا لتلك النَّظريَّة، تتعرَّض مصداقيَّة الأفهام والتفاسير للاهتزاز، ولا يمكن للمعرفة المعروضة عن الإنسان في تلك النُّصوص أن تتمتّع بالشَّرعيَّة الوحيانيَّة.

3. المذهب الأرثوذكسيّ الجديد:

من منظور المذهب الأرثوذكسيّ الجديد، لا تخبرنا النُّصُوص المُقدَّسة شيئًا صادقًا ومُوثّقًا حول القضايا العلميَّة؛ إذ إنّ الآراء والعقائد العلميَّة لمؤلِّفي الكتاب المُقدَّس، هي في الواقع تنظيرات العصر القديم المُبهمة[3].

4. الاتِّجاهات الوجوديَّة:

الاتِّجاه الوجوديّ هو من بين الاتِّجاهات المنكرة للبُعْد المعرفيّ لقضايا النُّصُوص الدينيَّة. ومن وجهة نظرها، القضايا الدينيَّة هي استخدامٌ وجوديٌّ منحصرٌ،

1- باربور، ايان؛ علم ودين، ترجمه بهاء الدين خرمشاهي، ص 124 و125.

2- المصدر نفسه، ص 131.

3- المصدر نفسه، ص147.

وهي تتعلّق فقط بقضايا الحياة والموت، وتشكيل المناهج والمقاربات. ويقول رودولف بولتمان في هذا المجال: «لا تتعلَّق التراتيل المسيحيَّة ورسالتها بالأحداث الخارجيَّة الموضوعيَّة في العالم؛ بل تتعلّق بمعرفةٍ جديدةٍ لأنفسنا؛ يمنحنا الله إيّاها في وسط الاضطرابات والآمال الَّتي تحدث في حياتنا»[1].

هو يعتقد بأنّ رسالة الإنجيل غير مُسْتندة إلى علم الكونيَّات لديه؛ على هذا الأساس، وظيفة العالِم هي «التجرُّد من الأسطورة»[2]. والتجرُّد من الأسطورة من وجهة نظره، محاولةٌ من أجل فصل الرسالة الأساس عن الأسطوريَّة في معرفة العالم، والَّتي لا يمكن لأيّ إنسانٍ مُعاصر الاعتقاد بها[3].

5. النِّسْبيَّة في تفسير النَّصّ:

من وجهة نظر أولئك الَّذين يُدافعون عن النِّسبيَّة في فهم النُّصُوص الدينيَّة، إنّ مشكلة فهم الإنجيل هي أنّه يجب أن يُواجه أفقُ فهمنا أفقَ النَّص، ويتكامل معه. بناءً عليه، يجب أن يتحدَّث الإنجيل معنا من خلال الكلمات المتَّصلة بعالمنا الحاضر؛ في حين أنّ المسافة الزمنيَّة الطَّويلة منذ ألفي سنة، قد أوجدت سياقًا مُختلفًا تمامًا بين ذينك الأفقين. وبعبارةٍ أخرى، المسألة الأساس هي أنّه كيف يمكن للرُّؤية الكونيَّة المختلفة تمامًا لعصر الإنجيل أن تُواجه وتعارض الرُّؤية الكونيَّة العلميَّة وتعارضها، وأن تواجه «النّزعة المعاصرة المتجاوزة للإله»؟

في تسويغ النِّسْبيَّة، يشير بولتمان إلى دور المَعَارف المُسبقة في تفسير النَّص، فيقول: «يُوجَّه التفسير بوساطة اهتمام خاصٍّ الَّذي بدوره يدين بمعرفة مُسبقة مُعيّنة. الأسئلة الَّتي تُطرح أمام النّص تَنشأ من تلك الاهتمامات والمعرفة؛ لذلك، تسترشد جميع التفسيرات بالأفكار المُسبقة للمُفسِّر»[4].

السَّاحة الأخرى للأزمة

في المناقشات السَّابقة، قمنا ببحث الأزمة في كلٍّ من فروع الأنثروبولوجيا الثّلاثة. والآن سوف نبحث مسألة أزمة الأنثروبولوجيا من زاويةٍ أخرى؛ وهي اغتراب كلّ

1- باربور، علم ودين، مصدر سابق، ص 151.

2- demythologizing.

3- Palmers, Richard, Hermeneutics - p. 28.

4- Ibid pp. 27, 51.

فرعٍ، وعدم اهتمامه بإنجازات الفروع الأخرى ودراساتها. ولو لم يكن هناك من أزمةٍ في كلّ فرعٍ من تلك الفروع، لكان نفس عدم اهتمام الفروع الثلاث ببعضها بعضًا، وعدم وجود إشرافٍ وحوارٍ فيما بينها، من شأنه التَّسبُّب في بُرُوزِ الأزمة في معرفة الإنسان؛ ناهيك عن أنّه يمكن الآن رؤية الجذور العميقة للأزمة في كلّ فرعٍ.

في الأنثروبولوجيا العلميَّة، لا يوجد أيّ أثرٍ للأنثروبولوجيا الدِّينيَّة، وتسود اللَّامُبالاة المُطلقة، خاصَّةً بالنَّظر إلى غلبة النَّظرة الوضعيَّة، والتَّحليل اللُّغويّ بين شريحةٍ عظيمةٍ من مُفكّري العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة؛ ما يسوق أساسًا إلى سَلْب النُّصُوص الدينيَّة دورها في كونها «مصدرًا للمعرفة»، واختزالها إلى حدّ المواعظ والأخلاق، وبيان المشاعر.

أمّا بالنِّسبة إلى الموضوعات والبحوث الفلسفيَّة والنَّظريَّة، على الرّغم من أنّ لها دورًا في خِضَمِّ عمل مُفكّري العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، إلّا أنّ ذلك الدَّوْر لا يتوفّر في شكل نظرةٍ باحثةٍ إلى قضايا الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة؛ بدلًا من ذلك، فإنّه يتجلَّى فقط في قالب قبول العالِم للافتراضات الفلسفيَّة. وغالبًا ما يتمّ قبول تلك الافتراضات الفلسفيَّة حول الإنسان بشكلٍ اعتباطيٍّ دون دَعْم اسْتِدْلاليٍّ عميقٍ، ومن دون نظْرةٍ مُحقّقة إلى الإنجازات الفلسفيَّة الواسعة حول الإنسان.

في تلك الاختيارات، يكون اتّفاق الافتراضات مع مسار البحث العلميّ للعالِم، والنَّظريّات الَّتي تتفتّح في ذهنه أكثر تأثيرًا من أيِّ شيءٍ آخر. والشَّاهد على ذلك الادِّعاء، التّناسب الجَليّ بين النَّظريّات العلميَّة، لأمثال: ماركس، وفرويد، وداروين، مع رؤاهم الفلسفيَّة إلى الإنسان وطبيعته؛ ما يُؤدّي إلى إثارة ذلك الاعتقاد لدى كلّ ناظرٍ وهو أنّ فهمهم الفلسفيّ للإنسان مُتأخّرٌ عن آرائهم العلميَّة، وقد أُعِيدَ بناؤه وفقًا لها؛ لا أنّ تلك الآراء قد استندت إلى بحثٍ علميٍّ وتحقيقيٍّ لما يحدث في الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة.

ما أُثيرَ عن عدم وجود إشرافٍ بين الفرع العلميّ وسائر الفروع، موجودٌ أيضًا بين الفرعين: الفلسفيّ، والدينيّ نسبةً إلى الفرع العلميّ للأنثروبولوجيا. ويُسوّغ عدم الإشراف، وعدم الاكتراث القائم، في الكثير من الحالات، على أساس التقويم والمِصْداقيَّة المُعطاة لنتاجات باقي الفروع؛ مثلًا أولئك الَّذين هدفهم معرفة الإنسان الفلسفيَّة، لا يهتمُّون بتاتًا لإنجازات العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ـ الحاصلة عن طريق المنهجين: التّجريبيّ والطّبيعيّ ـ؛ وذلك بسبب أنّها هي نتاج النَّظر للعلاقات

الخارجيَّة للظَّواهر الإنسانيَّة، وليس العلاقات الداخليَّة ذات الدّلالة والمعنى، ومثل تلك النّظْرة، لا تفتح الطّريق لفهم الطّبيعة الداخليَّة والحقيقيَّة للإنسان. ومن جهةٍ أُخرى، أولئك الّذين يرون المنهجين: العقليّ، والفلسفيّ فاشلًا في معرفة الواقع، فمن الطّبيعيّ أن لا يكترثوا للإنجازات الفلسفيَّة حول الإنسان، وذلك الأمر مُسوّغ من وجهة نظرهم. وكذلك الأمر، إنّ عدم اهتمام بعض الرُّؤى الخاصّة وإشرافها حول معرفة العالم والإنسان النّاشئة من النُّصوص الدينيَّة لهو أمرٌ مُدلّل ومُسوّغ طبقًا للكثير منها.

إنّ نتيجة كلّ ما ذُكر أعلاه هو شيوع التشتُّت والفوضى في فهم الإنسان ومعرفة حقيقته؛ وذلك ما يُعبّر عنه بالأزمة.

الحلول وردود الفعل

لا يمكن إنكار تلك الحقيقة، وهي أنّ وجود منظورٍ واسع وشاملٍ في مقولة فهم الإنسان ومعرفته، قد أثار ردود أفعالٍ مختلفة، نشير في ما يلي إلى ثلاث فئاتٍ من ردود الفعل تلك:

1. بعضهم مثل: خوسيه اورتيغا غاسيت، وأمام فشل العلوم في معرفة الإنسان وبقاء طبيعة الإنسان مخفيَّة، بدلًا من نقد الأساليب الموجودة وفضحها، أو إنشاء إطارٍ جديدٍ في البحث عن الإنسان، يحاولون محو القضيَّة، وينكرون «الطَّبيعة الإنسانيَّة الواحدة». ويقول غاسيت:

«نحن اليوم نعلم أنّ العلوم الطَّبيعيَّة، على الرّغم من أنّها لا تنضب في الأساس في تحقيق المعجزات، ولكنّها تبقى عاجزة وحائرة أمام حقيقة حياة الإنسان المُثيرة للدَّهشة. فما سبب ذلك الفشل؟! إذا كانت الكائنات كلّها قد كشفت عن جزءٍ كبيرٍ من سرّها في العلوم الفيزيائيَّة، فما السَّبب في أنّ الحياة الإنسانيَّة هي الشيء الوحيد الصّامد أمامها، ولا يزيل حجب الأسرار. ربما القضيَّة أصغر ممّا نظن؛ أي ربّما لا يكون الإنسان أكثر من شيءٍ، والحديث عن طبيعة الإنسان أمرٌ كاذب، والإنسان فاقدٌ لشيءٍ اسمه الطَّبيعة والأصل والفطرة. على هذا الأساس، يجب علينا تربية أذهاننا بنحوٍ يفكّرُ بألفاظٍ ومقولاتٍ ومفاهيم بشأن الإنسان مختلفة تمامًا عمّا يُستخدم في التعبير عمّا يُصطلح عليه بالظَّواهر المادِّيَّة»[1].

1- Ortega ' y Gasset, History as a system, pp. 293, 294, 313.

2. مجموعـةٌ أخـرى، وبنـاءً لمبـانٍ ومبـادئ موجـودة فـي فلسـفة العلـم وقيمـة المعلومـات البشـريَّة، قـد قبلـت بشـكلٍ عـام بأنّـه يجـب تقبُّـل تلـك الأزمـة بوصفهـا حقيقـةً لا يمكـن اجتنابهـا. فهـم يـرون أنّ الحصـول على معرفـة موثوقـة لا يمكـن نقدهـا حلـمٌ بعيـد المنـال؛ إذ إنّ تاريـخ العلـم مليء بـالآراء المُتَذَبْذبـة والمُدحَضـة، والمعرفـة الفلسـفيَّة هـي أيضًـا سلسـلة مـن التخمينـات الَّتِـي يمكـن انتقادهـا. ليـس الأمـر أنّ بلـوغ المعرفـة العلميَّـة والفلسـفيَّة الواضحـة والمُتَّسـقة مع الواقـع هـو أمـر مُمْكـن وقابـل للتّحقيـق يتجنّبـه العلمـاء والفلاسـفة؛ لا يوجـد طريـقٌ لإيجـاد بديـل لمـا هـو سـائدٌ في عالـم المعرفـة، ولا يوجـد حـلٌّ آخـر سـوى الاسـتمرار فـي السِّـياقِ الفوضـويّ نفسـه و «الباعـث للأزمـة» في معرفـة الإنسـان[1]. ومـا يدافـع عنـه فايرابنـد هـو حُرِّيَّـة منهـج العالِـم في بحوثـه العلميَّـة. ولذلـك، هـو يسـتنكر فـرض منهـجٍ واحـدٍ على العالِـم، ويشـجّع نوعًا مـن الفوضـى الميتدولوجيَّـة[2].

3. ردود الفعـل السّـابقة لا تُقـدّم حلـولًا للأزمـة؛ أمّـا النَّظـرة الثّالثـة، فإنّهـا تسـعى إلى عـرضِ حـلٍّ عمليٍّ للخـروج مـن الأزمـة. وتعتقـد تلـك النّظـرة بـأنّ الأزمـة الَّتِـي ذكرهـا ماكـس شـلر ناشـئة مـن انعـدام العلاقـة المعرفيَّـة بيـن الأنـواع الثلاثـة للأنثروبولوجيـا: (العلميَّـة، والفلسـفيَّة، والدينيَّـة) ولقـد تسـبَّب ذلـك فـي شـيءٍ اسـمه فوضـى الفكـر، وعـدم وجـود كيـانٍ علمـيٍّ واحـدٍ، ومركزيَّـةٍ مُسـتقلّة مـن أجـل معرفـة الإنسـان. وفقًـا لأصحـاب تلـك النّظـرة، فـإنّ تفسـيرًا خاصًّـا للأنثروبولوجيـا الفلسـفيَّة[3] يمكـن أن يحـلّ الأزمـة، ويمكـن بلـورة المركزيَّـة الضَّروريَّـة في ذلـك الفـرع، ويمكـن عَـدّه علمًـا يُـوازن

1- يُعـدُّ بوبـر وأمثالـه مـن المُفكّريـن مـن تلـك المجموعـة. صحيـحٌ أنّ بوبـر ينـادي دائمًـا فـي مختلـف كتاباتـه بواقعيَّـة المعرفـة الفلسـفيَّة والعلميَّـة، واقتـراب قافلـة العلـم مـن الحقيقـة خطـوة بعـد خطـوة؛ ولكـن كمـا يُذكّـر منتقـدوه، لا يسـتطيع بوبـر الدّفـاع عـن تلـك الفكـرة بطريقـةٍ منطقيَّـة؛ لأنّ باعتقـاده، الملاحظـات مُثقلـة بالنَّظريَّـة (theory laden). علـى هـذا الأسـاس، لا يمكـن عَـدّ دحـض نظريَّـة بملاحظـاتٍ مُعاكسـة دحضًـا حقيقيًّـا؛ لأنّـه قـد تكـون تلـك النّظريّـات المصاحبـة لتلـك الملاحظـة، باطلـة فـي الواقـع. لذلـك، سـوف نواجـه شـكًّا تامًّـا بشـأنّ النّظريّـات الماضيـة والحاليَّـة (المُدحضـة وغيـر المُدحضـة)، وعلـى الرّغـم مـن أنّنـا ندّعـي لفظًـا بأنّنـا قـد أصبحنـا أكثـر قربًـا مـن الحقيقـة بوسـاطة دحـض التخمينـات، ونقـد النّظريّـات السّـابقة، ولكـن مـن النّاحيـة المنطقيَّـة، لا يمكـن الوثـوق بتلـك الانتقـادات.

2- تشالمرز، آلان. أف.؛ جيستى علم، ترجمه سعيد زيبا كلام، ص 165- 167.

3- Philosophy Anthropology.

ويُنسّق مختلف أنشطة فروع المعرفة حول الإنسان.

إذ يحاول عالِم الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، وفقًا لتلك النّظرة، أن يُبيّن فلسفيًّا تلك الوقائع الَّتِي حقّقتها العلوم المختلفة في ما يتعلّق بطبيعة الإنسان ووضعيّته، ويتوق إلى الحصول على ميتافيزيقا قائمة على علم حديثٍ حول الإنسان. فهو يسعى إلى إيضاح الخصائص الأساسيَّة الَّتِي قد جعلت من البشر بشرًا، وميّزته عن سائر الموجودات.

إذن، الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة، تسعى إلى إيجاد علاقة بين مختلف الأنثروبولوجيّات الَّتِي ظهرت في ظلّ تخصُّصيَّة العلوم. والأنثروبولوجيا الفلسفيَّة هي أكثر ارتباطًا بالميتافيزيقا، والأنطولوجيا، ونظريَّة القيمة، ونظريَّة المعرفة، واللّاهوت، وفلسفة العلوم، وفلسفة التاريخ؛ كما أنّها تشمل معظم العلوم الاجتماعيَّة[1].

طبقًا لاعتقاد كاتب تلك المقالة، لا يُمكن بمجرّد حصول حوارٍ بين العلوم، وارتباط الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة بمختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، إزالة الأزمة القائمة. وكما تمّت الإشارة، لقد مدّت الأزمة القائمة جذورها إلى كلّ فرعٍ من الفروع الثلاثة، ولا تُختزل في عدم وجود ارتباطٍ فيما بينها؛ على هذا الأساس، لا يمكن الأمل بحلّ تلك الأزمة إذا لم تحلّ تلك المشكلات الدَّاخليَّة. كما أنّ إيجاد علم شاملٍ ـ في حال لم يتمّ التقدُّم ولو خطوة من أجل إزالة الاختلافات العميقة والجذريَّة في كلّ فرعٍ ـ لن يكون حلًّا عمليًّا للأزمة؛ على سبيل المثال، إذا أرادت الأنثروبولوجيا الفلسفيَّة التّحاور مع العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، فما المعيار الَّذي سيتمُّ اختياره من بين معطياتٍ مختلفة تمامًا، والَّتِي توفّرت بوساطة مناهج بحثٍ مُتباينة؟ وأيّ معاييرٍ ستتّبعُ في تحكيمها وتقويمها؟

تبدو الرُّؤية الحتميَّة للأزمة قاتمة وغامضة في المدى المَنْظُور؛ ولكن يُمكن تقديم توصياتٍ في سبيل التَّخفيف منها؛

أولا: تعريف مكانة تدخُّل المعرفة الدينيَّة والفلسفيَّة، وتحديدها في العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بشكلٍ جيّد. إذا كانت الإجابات الفلسفيَّة عن الأسئلة الأساسيَّة حول الإنسان تفي بدورها بصفتها افتراضاتٍ للعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، وتؤدّي دورًا في تحديد مسار البحث ومنهجه. إذن؛ من واجب علماء تلك العلوم

1- Edvzrds, Paulm Encyclopedia of philosophy, vol.6, p. 160.

عـدم التّسـامح والتّسـاهل في اعتمـاد تلـك الافتراضـات، وأن يبذلـوا الجهـود مـن أجـل الإجابـة عـن تلـك الأسـئلة بوصفهـم باحثيـن مُحايديـن، وأن لا يغفلـوا عـن التُّـراث الفلسـفيّ والدّينـيّ، وعليهـم أن يولـوا الاهتمـام التّـام بدقائـق أفـكار الفلاسـفة وآرائهـم، وبحـوث علمـاء الديـن؛ بحيـث تـزرع في ظلّ ذلـك الاهتمـام والإشـراف بذور الانسـجام والتّقـارب، وتُخفّـف حـدّة الخـلاف وتشـتُّت الآراء.

ثانيًـا: نظـرًا إلى تنـوُّع الاهتمامـات والمنظُـورات في البحـوث الَّتِي تمّـت في تلـك العلـوم، ربمـا يكـون بالإمـكان الدِّفـاع عـن نـوعٍ مـن التعدُّديَّـة الميتدولوجيَّـة في تلـك العلـوم. في الحـالات الَّتِي يكـون هـدف العالِـمِ هـو فهـم الحيـاة الداخليَّـة للبشـر، وفهـم علاقاتهـم الباطنيَّـة والكامنـة ـ الموجـودة خلـف العلاقـات الظاهريَّـة والمشـهودة ـ، يتـمّ اسـتخدام المنهـج التفسـيريّ، والتأمُّـلات الشـهوديَّة، والتحليـل الفلسـفيّ، وليـس المنهـج التجريبـيّ والمعطيـات الإحصائيَّـة؛ وفـي تلـك الحـالات الَّتِـي يكـون فيهـا التنبُّـؤ والتحكّـم همـا الهـدف المنشـود الأسـاس للعالِـم، فـإنّ تطبيـق المنهـج التجريبـيّ والتفسـير العلّـي لأمـرٌ فعّـال. وبتلـك الطريقـة، ومـن خـلال تقسـيم مجـالات تطبيـق كلّ منهـج، وتصنيـف الاهتمامـات والمنظـورات، يمكـن تجنُّـب الإفـراط في اعتمـاد منهـجٍ خـاصٍّ، ويكـون خطـوةً باتِّجـاه التّخفيـف مـن الأزمـة.

في بُعْـد الأنثروبولوجيـا الدينيَّـة أيضًـا، إنّ الالتفـات إلى وحيانيَّـة القرآن الكريـم، وأنّه «لا يأتيـه الباطـل مـن بيـن يديـه» سـيغلق الطّريـق أمـام الكثيـر من الشُّـكُوك السّـائدة بين الغربيِّيـن بخصـوص مصداقيَّـة تفسـيرات الكتـاب المُقـدّس. إذن، إنّ طريـق الحـدّ مـن الأزمـة، وخلـق الانسـجام والتّفاهـم المُتبـادل بيـن العلـم، والفلسـفة، والديـن معبّـدٌ أمـام مـن يُؤمِـن بحقَّانيَّـة القـرآن، وأنّـه وحـي.

في الأنثروبولوجيـا الفلسـفيَّة أيضًـا، في حـال تـمّ الاهتمـام أكثـر بطريقـة الاسـتدلال العقلـيّ، وتـمّ العثـور على إجاباتٍ فلسـفيَّةٍ ومُسـتدلّة (وليـس إجابـاتٍ اعتباطيَّـةٍ بصفتهـا افتراضًـا) للأسـئلة الفلسـفيَّة حول الإنسـان، فـإنّ الطَّريق مفتـوحٌ لأجل تقويـم الإجابات، والحـدّ مـن الأزمـة في ذلـك القسـم أيضًـا.